Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.23, Issue: 2016

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد الثالث والعشرون، 2016م.

اللغة العربية ومكانتها العلمية في فهم القرآن وتفسيره

د. طاهر محمود محمد يعقوب
رئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة أردو
الفيدرالية للفنون والعلوم والتكنالوجيا بإسلام آباد

Absrtact:

Arabic language is an important language among the rest of the languages due to its solid structure, politeness and fluentness, in addition when Allah Almighty chosen the Arabic language as the medium of his last and final revelation, it increases the importance, dignity and glory of the Arabic language. Arabic is the only language which survived for more than fourteen centuries with his original shape and taste. It is compulsory for understanding and especially explaining the Divine message to ensure the expertise and skills in all branches of the language including literature and poetry as well. The solid and accurate understanding of Holy Quran depends on the deep linguistic skills and solid grip on the rules of Arabic language. On the other hand one can lose stability in understanding and explaining the Holy Quran due to lackness of the above mentioned criteria which is too much necessary.

This article answers the following questions in highly Academic style:

1. What is meant by Arabic Language?
2. Is it possible for one who does not know the Arabic language to explain the Holy Quran in accurate way?

What is the importance of Arabic language among renowned scholars?

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين، وهذا يعنى أنه جار في ألفاظه ومعانيه، وأساليبه، وإعرابه واشتقاقه على لسان العرب الفصيح. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

قال الإمام الشافعي رحمه الله – بعد أن ساق هذه الآية ونظائرها– "فأقام حجته بأنه كتاب عربي".[2]

"وقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مظهرا لوحيه، ومستودعا لمراده، وأن يكون العرب هم المتلقين أولا لشرعه وإبلاغ مراده لحكمة علمها: منها كون لسانهم أفصح الألسن وأسهلها انتشارا، وأكثرها تحملا للمعاني مع إيجاز لفظه".[3]

ومن ثم تعتبر معرفة لغة القرآن الكريم من أهم الأدوات لفهمه وتفسيره، ولا يصح فهمه وتفسيره إلا بطريق فهم اللسان الذي نزل فيه، فلذا يجب على المفسر أن يكون على معرفة تامة بقواعد اللغة العربية وأصولها ودلالتها.

"فكان حقا على من أراد فهم معانيه وإدراك مراميه، أن يكون على جانب كبير من التمكن من اللغة العربية، وإلا لايقدر على شيئ من ذلك"[4]

المقصود باللغة العربية وقواعدها:

المراد باللغة العربية التي تعد من أهم شروط المفسر: معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم

كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوا اللغة على طريقهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

ولما كان القرآن كلاما عربيا كانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة.

ونعني بقواعد العربية: "مجموع اللسان العربي، وهي متن اللغة، والتصريف، والنحو، والاشتقاق، والغريب، والإعراب، والمعاني، والبيان، والبديع. ومن وراء ذلك استعمالات العرب في كلامها، ووجوه مخاطباتها."[5]

ومما لا يختلف فيه اثنان أن للعلم بأصول اللغة العربية وللمعرفة بفروعها أهمية بالغة في فهم القرآن وتفسيره، والتسلح بهذا العلم يعتبر من أوجب شروط المفسر وأكمل آدابه؛ فإن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ويتوقف فهمه على معرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع.

ومع هذه المكانة السامية للغة وتلك المنزلة العالية لمعرفة أصولها، لا يجوز لمن يتصدى لتفسير القرآن الكريم أن يكون اعتماده فيه على مجرد اللغة فقط؛ لأنه يؤدي إلى تعطيل كثير من المفاهيم الدينية والمعاني الشرعية الثابتة بالقرآن والسنة وإجماع الأمة.

ومن قواعد التفسير أنه: "ليس كل ما ثبت في اللغة صح حمل آيات التنزيل عليه، بل يجب حمل كلام الله على الأوجه اللغوية والإعرابية القوية المشهورة دون الضعيفة والشاذة والغريبة، اللائقة بالسياق والموافقة لأدلة الشرع."[6]

وليس المقصود بقواعد اللغة قواعد علم النحو والصرف فقط كما هو المتبادر للأذهان، والمتسرع للأفهام، بل هي أوسع من ذلك.

" أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها. إن

القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم..."[7]

قال الإمام الشاطبي رحمه الله عن علم اللغة العربية المطلوب في فهم النصوص الشرعية:

"لا أعني بذلك النحو وحده، ولا التصريف وحده، ولا اللغة، ولا علم المعاني، ولا غير ذلك من أنواع العلوم المتعلقة باللسان، بل المراد جملة علم اللسان ألفاظ أو معاني كيف تصورت"[8]

وكما أن الاعتماد على مجرد اللغة في التفسير خطأ فاحش ،فكذلك الجهل بقواعد هذه اللغة خطأ خطير في باب التفسير حيث يوقع صاحبه في الهلكة والورطة والمضايق الصعبة والمفاهيم المعقدة بتفسير الخروج منها، ويتعذر الخلاص منها، ويصعب تصحيحها إلا بإزالة ذلك الجهل .

ومن تعرض لتفسير القرآن وهو مفلس في معرفة قواعد اللغة العربية، هلك فأهلك، وتأول فانحرف، وفسر فأخطأ.

فعن الحسن رحمه الله أن قال: "أهلكتهم العجمعة، يتأولونه – أي القرآن– على غير تأويله".[9]

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كلام نفيس في بيان أهمية اللغة العربية ومكانتها في الإسلام عموما وضرورته القصوى لفهم نصوص الكتاب والسنة خصوصا، ذكره في كتابه العظيم "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم". لولا خشية الإطالة لنقلته هنا كاملا، ولكن أكتفي بذكر بعض الفقرات منه، فقال رحمه الله :

"وأما اعتياد الخطاب بغير اللغة العربية – التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن – حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، أو لأهل الدار، أو للرجل مع صاحبه، أو لأهل السوق، أو للأمراء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه، فلا ريب أن هذا مكروه فإنه من التشبه بالأعاجم، وهو مكروه كما تقدم.

ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ومصر، ولغة أهلهما رومية، وأرض العراق وخراسان ولغة أهلهما فارسية، وأهل المغرب، ولغة أهلها بربرية عوّدوا أهل هذه البلاد العربية، حتى غلبت على أهل هذه الأمصار: مسلمهم وكافرهم، وهكذا كانت خراسان قديما.

ثم إنهم تساهلوا في أمر اللغة، واعتادوا الخطاب بالفارسية، حتى غلبت عليهم وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم، ولا ريب أن هذا مكروه، وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية، حتى يتلقنها الصغار في المكاتب وفي الدور فيظهر شعار الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف، بخلاف من اعتاد لغة، ثم أراد أن ينتقل إلى أخرى فإنه يصعب.

واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل، والخلق، والدين تأثيرا قويا بينا، ويؤثر أيضا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.[10]

بين الإمام الشاطبي رحمه الله أهمية اللغة العربية ومكانته في فهم القرآن بقوله: "فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة".[11]

وقال: "كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي، فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك؛ فهو في دعواه مبطل"[12]

فـ "هذه قاعدة عظيمة، مبناها على أن هذا القرآن نزل بلغة العرب، وعليه فإنه يسلك في فهمه واستنباط المعاني منه مسلك العرب في فهمهم واستنباطهم، وبهذه القاعدة تبطل تفسيرات الملاحدة والزنادقة المنسوبة لكتاب الله عزوجل...".[13]

وقال الشاطبي – أيضا – في كتابه الاعتصام.

"وإن كان بعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب، وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلا من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها"[14]

فإذا ثبت هذا فعلى الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولا وفروعا أمران أحدهما: أن لا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيا أو كالعربي في كونه عارفا بلسان العرب، بالغا فيه مبالغ العرب. أو مبالغ الأئمة المتقدمين كالخليل وسيبويه والكسائي والفراء ومن أشبههم وداناهم. وليس المراد أن يكون حافظا كحفظهم وجامعا كجمعهم، وإنما المراد أن يصير فهمه عربيا في الجملة.

والأمر الثاني: أنه إذا أشكل عليه في الكتاب أو في السنة لفظ أو معنى فلا يقدم على القول فيه دون أن يستظهر بغيره ممن له علم بالعربية، فقد يكون إماما فيها، ولكنه يخفى عليه الأمر في بعض الأوقات. فالأولى في حقه الاحتياط، إذ قد يذهب على العربي المحض بعض المعاني الخاصة حتى يسأل عنها. وقد نقل شيء من هذا. عن الصحابة – وهم العرب – فكيف بغيرهم.[15]

مظاهر أهمية اللغة العربية:

وفي ضوء ما سبق من أقوال أهل العلم في شأن اللغة العربية نستطيع أن نلخص الكلام ونقول: إن اللغة العربية تتجلى أهميتها في فهم النصوص القرآنية في الأمور التالية :

1- أن الكتاب والسنة عربيان:

فالقرآن الكريم أنزله الله تبارك وتعالى بلغة العرب الفصيحة، قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ.عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[16]

والرسول صلى الله عليه وسلم نزل عليه القرآن، وفسره بقوله وعمله وبينه بسيرته من أصل العرب وخلصهم، وهو ذو لسان عربي فصيح .

2- أن معاني كتاب الله موافقة لمعاني كلام العرب، وظاهره ملائم لظاهر كلام العرب.

ففي القرآن من الإيجاز، والاختصار، والعام والخاص، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار كما في كلام العرب.

3- إذا علم ذلك فإن فهم مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم متوقف على فهم لغة العرب ومعرفة علومها، فعلى كل مسلم أن يتعلم من هذه اللغة ما يقيم به دينه ويصلح آخرته.

وقال الشافعي رحمه الله : "على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يَشْهَد به أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، ويتلوَ به كتابَ الله".[17]

اهتمام الصحابة باللغة العربية:

ومما يبيّن أهمية اللغة العربية ومكانتها في التفسير أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم كانوا أعلم الناس بالعربية، وهذا جعل تفسيرهم من أتقن التفاسير

وأحسنها في التفسير بالمأثور، وكانوا على ذروة الفصاحة وقمة البلاغة، عارفين أساليب اللغة ورموزها، عالمين سعتها وأسرارها.

"لقد نزل القرآن الكريم بلسان العرب، جاريا على معهودهم في الكلام، وعادتهم في الخطاب، فكل من كان من لسان العرب متمكنا كان للقرآن أشد فهما وأحسن إدراكا، ولا يعلم أحد أفصح لسانا وأسد بيانا وأقوم خطابا من أهل القرون الأولى المفضلة، وأولاهم في هذا الفضل والسبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يكون في الأمة من بعد القرون الأولى أحد أفصح منهم لسانا، ومن ثم فلا يقدر أحد أن يفهم القرآن من هذه الجهة – جهة كونه عربيا – أفضل ولا أحسن من أصحاب القرون الأولى، بل كل من جاء بعدهم فهو دونهم في الفصاحة والبيان، والفهم والإدراك."[18]

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: "وما نقل من فهم السلف الصالح في القرآن، فإنه كله جار على ما تقضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية"[19]

"ولقد كان العرب في عهد نزول القرآن على جانب كبير من الإحاطة بلغتهم، ومعرفة أساليبها وإدراك حقائقها، فكانوا بذلك أقدر الناس على فهم القرآن وإدراك معانيه واستيعاب مراميه، ومن جاء بعدهم كان أقل منهم درجة أو درجات لبعدهم عن صفاء اللغة العربية، وذلك لما عم الإسلام الأرض واختلط العرب بالعجم وتولد منهم ذلك الجيل الذي أصبح يبتعد رويدا رويدا كلما مر عليه الزمن، عن اللغة الأم وصفائها.

فقد كان الصحابة أعلى قدرا في فهم القرآن وإدراك حقائقه من التابعين، والتابعون كانوا أعلى قدرا ممن بعدهم، وهكذا كلما كان البعد عن صفاء اللغة، كان البعد أشد في إدراك معاني القرآن وفهم مقاصده وأحكامه وأسراره."[20]

فحاصل الكلام أن كل من كان بلغة العرب أعرف ولأساليبها في الخطاب أجمع، ولتراكيبها في الإعراب أعلم، كانت معرفته بمعاني نصوص الكتاب

والسنة أشد، وفهمه لمدلولاتها أرسخ، وتفسيره لمفاهيمها أتقن، وبيانه لمقاصدها أكمل، كما أن من كان في زمن موسى عليه السلام أعظم معرفة بالسحر، كان علمه ومعرفته بإعجاز العصا أوفر، وكذا من كان في زمن عيسى عليه السلام أحذق في الطب كانت معرفته بإعجاز إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص آكد".(21)

أقوال العلماء في بيان أهمية قواعد اللغة العربية وإنكار الجهل بها في التفسير:

من عوامل الانحراف في فهم الآيات القرآنية، ومن دواعي ظهور الفهومات الزائغة للنصوص الشرعية، الضعف في اللسان العربي قراءة، وكتابة، وفهما، وتطبيقا، والجهل بقواعده من التصريف، والنحو، والاشتقاق، والإعراب، والمعاني، والبيان، وغير ذلك من مصطلحات اللغة وأصولها، ثم التعامل مع هذه النصوص من خلال هذه العجمة.

وطرأ هذا الضعف اللساني والجهل اللغوي بسبب شيوع العجمة وانتشارها، وذيوع اللحن وظهوره، ودخول الأمم الأعجمية في الإسلام، وقلة العلم بأصول اللغة ومدلولاتها، وندوة الاهتمام بالحفاظ عليها.

فالجهل باللغة العربية والقصور في معرفة قواعدها يؤدي إلى الجهل بألفاظ الشرع وأحكامه، وإلى الفهم الخاطئ لنصوص الكتاب والسنة، ومن ثم إلى تكوين أفكار فاسدة، وفلسفات ملحدة.

وقد أدرك سلفنا الصالح خطورة اللحن والعجمة والضعف في اللغة العربية، وحذروا من الوقوع فيها مشيرين إلى آثارها السيئة ونتائجها المهلكة، وكشفوا كيف أن العجمة والجهل باللغة والتغافل عن معرفة قواعدها يؤدي بصاحبه إلى انحراف الفهم وفساد تصور معاني النصوص، كما أنهم شددوا النكير على من تجرأ على التفسير دون أن يكون عالما باللغة، وها أنا أنقل لك بعضا من أقوال هؤلاء العلماء وتأكيداتهم في هذا الموضوع :

- قال الإمام مجاهد رحمه الله : "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب".[22]
- قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس عليه رحمة الله : "لا أوتي برجل يفسر كتاب لله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا".[23]

وأشار الإمام الشافعي إلى سبب جهل الناس واختلافهم وتفرقهم بقوله: "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس".[24]

- وعلق السيوطي رحمه الله على هذا الكلام – مبينا بعض الآثار الناجمة من الجهل بقواعد اللغة – بقوله :

"وأشار الشافعي بذلك إلى ما حدث في زمن المأمون من القول بخلق القرآن، ونفي الرؤية، وغير ذلك من البدع، وأن سببها الجهل بلسان العرب الجاري عليه نصوص القرآن والسنة، وتخريج ما ورد فيهما على لسان اليونان ومنطق أرسطاطاليس، الذي هو في حيز ولسان العرب في حيز، ولم ينزل القرآن إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب، والاحتجاج والاستدال. لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح، فمن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره وخرج الوارد من نصوص الشرع عليه جهل وضل، ولم يصب القصد فإن كان في الفروع نسب إلى الخطأ، وإن كان في الأصول نسب إلى البدعة".[25]

- ذكر خطيب أهل السنة الإمام ابن قتيبة رحمه الله أنه لا يعرف فضل القرآن ويدرك معانيه إلا من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب".[26]
- تحدث الإمام الأزهري رحمه الله عن لغة القرآن الكريم، وعن لغة الذين نزل فيهم ، ومدى معرفتهم إياها، ثم قال:

"... فاستغنوا بذلك عما نحن إليه محتاجون، من معرفة لغات العرب والتبحر فيها، والاجتهاد في تعلم العربية الصحيحة التي بها نزل الكتاب، وأن على الخاصة الاجتهاد في تعلم لسان العرب ولغاتها، التي بها تمام التوصل إلى معرفة ما في الكتاب".(27)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك".(28)

قال الشاطبي: "الشريعة عربية، وإذا كانت عربية؛ فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم؛ لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز".(29)

تحدث العلامة في اللغة عبد الحميد الفراهي في المقدمة الأولى لكتابه "مفردات القرآن" عن أهمية المعرفة الدقيقة لمعاني المفردات وشدة الحاجة إليها، مشيرا إلى بعض مخاطر الجهل بها، حيث قال:

"لا يخفى أن المعرفة بالألفاظ المفردة هي الخطوة الأولى في فهم الكلام. وبعض الجهل بالجزء يفضي إلى زيادة جهل بالمجموع. وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سد جيمع أبوابه، فمن لم يتبين له معنى الألفاظ المفردة من القرآن:

- أغلق عليه باب التدبر.
- وأشكل عليه فهم الجملة.
- وخفي عنه نظم الآيات والسورة...

ثم سوء فهم الكلمة ليس بأمر هين، فإنه يتجاوز إلى إساءة فهم الكلام وكل ما يدل عليه من العلوم والحكم، فإن الكلام يبين بعضه بعضا للزوم التوافق بينها...".[30]

حمل النصوص على المعروف عند العرب:

ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يجوز حمل نصوص القرآن على الوجوه اللغوية الشاذة، والمحامل الضعيفة المنكرة في كلام العرب، والمصطلحات والمعاني الحادثة المستجدة التي ظهرت بعد عصر التنزيل، ولايسوغ لأحد أن يحمل الآيات القرآنية على المعنى الذي وجد عن المتأخرين، وإنما تفسير بما كان متعارفا لدى الجيل الأول، ويجب أن تحمل تلك النصوص على المعروف عند العرب من الأوجه المطردة وعادتاتهم وقت نزول القرآن، وتحمل على الأكثر استعمالا دون القليل والنادر، وعلى الأشهر فصاحة، وعلى الأغلب بلاغة،وعلى الأتقن رصانة، وذلك لأن القرآن الكريم أفصح الكلام، وأبلغ البيان، ونزل على أتقن اللغات وأفصحها وأشهرها، والذي نزل عليه هو صلى الله عليه وسلم افصح العرب، فلا يعدل به عن ذلك كله.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

"ومن هنا غلط كثير من الناس؛ فإنهم قد تعودوا ما اعتادوه إما من خطاب عامتهم وإما من خطاب علمائهم باستعمال اللفظ في معنى فإذا سمعوه في القرآن والحديث ظنوا أنه مستعمل في ذلك المعنى فيحملون كلام الله ورسوله على لغتهم النبطية وعادتهم الحادثة، وهذا مما دخل به الغلط على طوائف، بل الواجب أن تعرف اللغة والعادة والعرف الذي نزل به القرآن والسنة وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ، فبتلك اللغة والعادة والعرف خاطبهم الله ورسوله. لا بما حدث بعد ذلك".[31]

- وقال الشاطبي رحمه الله: "أنه لا بد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأميين – وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم – فإن كان للعرب في لسانهم

عرف مستمر، فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثم عرف، فلا يصح أن يجرى في فهمها على ما لا تعرفه.

وهذا جار في المعاني والألفاظ والأساليب.. وإذا كان كذلك، فلا يستقيم للمتكلم في كتاب الله أو سنة رسول الله أن يتكلف فيهما فوق ما يسعه لسان العرب".[32]

- وأشار الفراهي إلى منهج تفسير المفردات القرآنية المتمثل في الأخذ بأثبت الوجوه وأتقنها، وعدم الالتفات إلى المعنى الشاذ لغة، حيث قال رحمه الله :

"يجب أن نترك المعنى الشاذ الذي لم يثبت في اللغة".[33]

فخلاصة ما سبق أن كل من كان بلغة العرب وقواعدها أجهل، ولأساليبها في الخطاب أضعف، ولاستعمالاتها في الكلام أبعد، كان فهمه للقرآن أزل ، وتفسيره لآياتها أشكل، وبيانه لمطالبها أفسد، وشرحه لمقاصدها أوهن.

الأمثلة:

- اختلف المفسرون في معنى " وَفَارَ التَّنُّورُ"[34]، على عدة أقوال :

فقال بعضهم : معناه انبجس الماء من وجه الأرض، "وَفَارَ التَّنُّورُ"وهو وجه الأرض ، والعرب تسمى وجه الأرض "تنور الأرض".

وقال آخرون: معنى ذلك: وفار أعلى الأرض وأشرف مكان فيها بالماء.

وقال : التنور : أشرف الأرض.

وقال آخرون : هو التنور الذي يختبز فيه ، وقيل غير ذلك قال الإمام الطبري رحمه الله – بعد ذكره هذه الأقوال مسندة إلى من قال بها –: "وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله: (التنور) ، قول من قال: "هو التنور الذي يخبز فيه"، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجَّة على شيء

منه بخلاف ذلك فيسلم لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى مَا خاطبهم به".[35]

ورجح الإمام أبو حيان – أيضا – هذا القول قائلا : "والظاهر من هذه الأقوال : حمله على التنور الذي هو مستوقد النار"[36]

- فسر بعض الناس الجزء بالإناث عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[37]، ولم يسمع استعمال الجزء بهذا المعنى في اللغة العربية، ولذلك قد رد إمام اللغة الزمخشري هذا التفسير قائلا : " ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب: اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول"[38]

اختلف المفسرون في معنى الإمام في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[39]

فقال بعضهم: هو نبيهم، ومن كان يقتدي به ويؤتم به.

وقال آخرون: بل معنى ذلك أن الله عز وجل يدعوهم بكتب أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

وقال آخرون: بل معناه : يوم ندعو كل أناس بكتابهم الذي أنزل على نبيهم، فيه أمر ونهي من التشريع.[40]

وقال بعضهم : إن معنى إمام جمع "أم" وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم . وفيه ثلاثة أوجه من الحكمة – كما ذكرها الإمام البغوي رحمه الله:

أحدها: لأجل عيسى عليه السلام.

والثاني: لشرف الحسن والحسين رضي الله عنهما.

والثالث: لئلا يفتضح أولاد الزنا.[41]

ولا يهمنا هنا الترجيح بين هذه الأقوال التفسيرية، بل المقصود التبيه إلى القول الأخير الذي هو خلاف قواعد اللغة العربية من تصريف الكلمة وأصل اشتقاقها، وذلك لأن كلمة "أم" لاتجمع على "إمام" وإنما تجمع على أمهات.

قال الزمخشري عند تفسيره للآية: "ومن بدع التفاسير: أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الاباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا. وليت شعري أيهما أبدع؟ أصحة لفظه أم بهاء حكمته؟"[42]

وعلق الإمام ابن المنير على كلام الزمخشري – مؤيدا له – بقوله:

"ولقد استبدع بدعا لفظا ومعنى، فان جمع الأم المعروف أمهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق ليذكر بأمه، فيستدعى أن خلق عيسى من غير أب غميزة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فان خلقه من غير أب كان آية له، وشرفا في حقه، والله أعلم"[43]

كما علق المفسر اللغوي السمين الحلبي على كلام الزمخشري قائلا : " قلت: وهو معذور لأن» أم «لا يجمع على» إمام «، وهذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب"[44]

ورد السيوطي على هذا التفسير الخاطئ مبينا سبب الخطأ، حيث قال: "وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف فإن "أما" لا يجمع على "إمام"[45]

- قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾[46]

هذه الآية من الآيات المشكلة لغة ومعنى وإعرابا، حيث اختلف المعربون والمفسرون واللغويون في الشيئ الذي تتعلق به الكاف في "كما" على أقوال كثيرة أوصلها بعضهم إلى عشرين قولا، من هذه الأقوال ما هو قوي ويناسب السياق، ومنها ما هو ضعيف لايلائم التفسير به، والذي يهمنا هنا هو التمثيل بالقول الذي يخالف قواعد اللغة العربية .

وقد رد على هذا القول في تفسير هذه الآية لغة ما قاله أبو عبيدة في المجاز، حيث جعل "الكاف" حرف قسم بمعنى "الواو"، فقال : "مجازها مجاز القسم، كقولك: والذي أخرجك ربك، لأن "ما" في موضع "الذي"[47]

وقد رد على هذا القول الذي لا يعرف في لغة العرب عامة المفسرين، لأجل عدم استعمال العرب للكاف بمعنى واو القسم، ولبعده وضعفه من حيث المعنى.

ومن المفسرين وأهل اللغة الذين أنكروا ورود الكاف بمعنى واو القسم، المفسر اللغوي الإمام أبوحيان، حيث سجل رأيه عن أبي عبيدة وقوله هذا قائلا وناقلا:

"وكان ضعيفا في علم النحو، وقال الكرماني هذا سهو، وقال ابن الأنباري الكاف ليست من حروف القسم انتهى. وفيه أيضا أن جواب القسم بالمضارع المثبت جاء بغير لام ولا نون توكيد ولا بد منهما في مثل هذا على مذهب البصريين أو من معاقبة أحدهما الآخر على مذهب الكوفيين، أما خلوه عنهما أو أحدهما فهو قول مخالف لما أجمع عليه الكوفيون والبصريون."[48]

وجعل ابن هشام النحوي هذا الوجه التفسيري من التخريج على ما لم يثبت في اللغة العربية، حيث قال- بعد أن ذكر قول أبي عبيدة -:"[49]

ويبطل هذه المقالة أربعة أمور:

أن الكاف لم تجيء بمعنى واو القسم

وإطلاق "ما" على الله سبحانه وتعالى

وربط الموصول بالظاهر وهو فاعل "أخرج" ...

ووصله بأول سورة مع تباعد ما بينهما"[50]

- وقد أظهر بعض المعتزلة – مع كونه عالما باللغة بل إماما فيها- تجاهله بالعربية، حيث حرف قاعدة اللغة العربية وما تعارف عليه العرب، من أجل

أن ينتصر لمذهبه الباطل، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي"[51]

زعم الزمخشري أن (لن) تفيد نفي المستقبل لينكر رؤية الله عز وجل في الجنة، على طريقة تفسير المعتزلة – يعنى لن تراني في الدنيا، ولن تراني في الآخرة. وهذا مخالف لقواعد اللغة العربية، لأن (لن) لاتفيد النفي المؤبد، ودليل ذلك قول الله تعالى : "فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي"[52]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾[53]

وقال ابن مالك:

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

قال الخازن في تفسيره: "وقد تمسك من نفي الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية وهو قوله تعالى: لَنْ تَرَانِي قالوا لن تكون للتأبيد والدوام ولا حجة لهم في ذلك ولا دليل ولا يشهد لهم في ذلك كتاب ولا سنة وما قالوه في أن لن تكون للتأبيد خطأ بين ودعوى على أهل اللغة إذ ليس يشهد لما قالوه نص عن أهل أهل اللغة والعربية ولم يقل به أحد منهم ويدل على صحة ذلك قوله تعالى في صفة اليهود «ولن يتمنوه أبدا»[54] مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾،[55] وقوله: "يا لَيْتَها كانَتِ الْقاضِيَةَ".[56]

فإن قالوا إن "لن" معناها تأكيد النفي كـ"لا" التي تنفي المستقبل قلنا إن صح هذا التأويل فيكون معنى لن تراني محمولا على الدنيا أي لن تراني في الدنيا جمعا بين دلائل الكتاب والسنة فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح أن المؤمنين يرون ربهم عز وجل يوم القيمة في الدار الآخرة"[57]

- واستدل من لا خلاق له من مدعي جواز نكاح الرجل بتسع نسوة من الحرائر، بقوله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ

وَرُبَاعَ﴾[58]، لأن أربعا إلى ثلاث إلى اثنتين تسع[59]، ولم يشعر بمعنى فعال ومفعل في كلام العرب وأن معنى الآية: بمعنى فعال ومفعل في كلام العرب، وأن معنى الآية، فانكحوا إن شئتم اثنتين اثنتين أو ثلاثا ثلاثا أو أربعا على التفصيل لا على ما قالوا، يعنى : اثنتين بعد الثنتين لا اثنتين مع اثنتين، وهكذا يقال في الباقي، فإذا قال العربي : دخل الرجال الدار مثنى، فهوم بمعنى أنهم دخلوا اثنين بعد اثنين، فإذا دخل أربعة منهم دفعة واحدة لايقال أنهم دخلوا مثنى، ولا اثنين اثنين.[60]

قال الشاطبي رحمه الله – بعد إيراده هذا التفسير ضمن التفاسير المخالفة لقواعد اللغة العربية وأساليبها –: " ولا يقول مثل هذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورباع"[61]

وناقش الإمام القرطبي هذا التفسير مناقشة قوية، ورد عليه من وجوه شرعية ولغوية فمما قال رحمه الله عند تفسيره للآية:

"اعلم أن هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدل على إباحة تسع، كما قال من بعد فهمه للكتاب والسنة، وأعرض عما كان عليه سلف هذه الأمة، وزعم أن الواو جامعة، وعضد ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم نكح تسعا، وجمع بينهن في عصمته. والذي صار إلى هذه الجهالة، وقال هذه المقالة الرافضة وبعض أهل الظاهر، فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثلاث ورباع. وذهب بعض أهل الظاهر أيضا إلى أقبح منها، فقالوا بإباحة الجمع بين ثمان عشرة، تمسكا منه بأن العدل في تلك الصيغ يفيد التكرار والواو للجمع، فجعل مثنى بمعنى اثنين اثنين وكذلك ثلاث ورباع. وهذا كله جهل باللسان والسنة، ومخالفة لإجماع الأمة، إذ لم يسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع في عصمته أكثر من أربع..

وأما ما أبيح من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فذلك من خصوصياته...[62]

- ومن الناس الذين أهملوا قواعد اللغة العربية ومدلولاتها وأثبتوا جهلهم عند تفسيرهم للنصوص القرآنية، صاحب "الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن"، حيث أتى بتفاسير لا تستند إلى قواعد اللغة ولا تمت بصلة إلى أصول الشرع، فمن ذلك ما فسر به كلمة الفروج الواردة في قول الله تعالى : "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ"[63]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[64]

قال عند تفسيره –المزعوم– للآية الأولى: "أو ما ملكت أيمانهم من الخدم فإن لهم ما ليس لغيرهم، فقد يكون في الإنسان فروج،أي نقائص وعيوب يُسيئه أن يراها الناس فيه ولكن لايُسيئه أن يراها خدامه. ومن البلاغة في التعبير أن لفظ (أو) أفاد التنويع بين ما يباح للأزواج وما يباح بملك اليمين ، إذا لايوجد من العيوب ما لا ينبغي كشفه على الخدم ويكفيك فاصلا: الذوق والعرف الجاري مع الفطرة".[65]

وفسر الآية الثانية بنفس الكلام حيث قال: "فروج: عيوب ونقائص".[66]

والفروج في اللغة: جمع فرج، والفرج والفرجة: الفتق والشق بين الشيئين كفرجة الحائط، والفرج: ما بين الرجلين، وكني به السوأة، وكثر حتى صار كالصريح فيه.[67]

والسياق في الكلام هو الذي يحدد المعنى المراد الأصلي أم الكناية، ففي الآية الأولى هنا المراد بها "العورة" وفي الآية الثانية على المعنى الأصلى. وإذا ما نظرت بعد هذا في تفسير "صاحب الهداية" وجدته لا يفرق بين هذا وذاك، فيذكر لهما معنى واحدا، وزيادة على هذا فالمعنى الذي ذكره ليس هو المعنى الأصلي ولا الكناية به ... وهو دليل على جهله في اللغة، بل وعلى عدم اعتداده بها في التفسير".[68]

وعلق الدكتور فهد الرومي على قوله في تفسير الآية الأولى قائلا: " وهو هنا صرف الآية عن أن تكون للحث على حفظ الفروج حقيقة من الوقوع في الحرام إلى أن يكون المراد بالفروج النقائص والعيوب، وأن المراد بحفظها منع كشفها لغير الأزواج والخدم؟![69] هذا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الهوامش و المصادر

1. يوسف: 2
2. الرسالة للشافعي ص: 72،: محمد بن إدريس تح: الشيخ أحمد محمد شاكر، ط: الثانية 1399هـ، مكتبة دار التراث بالقاهرة
3. التحرير والتنوير 33/1 لابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر، ط: 1984م، الدار التونسية بتونس.
4. أصول التفسير وقواعده ص: 138 للشيخ خالد عبد الرحمن العك، ط: الثانية 1406هـ، دار النفائس بيروت.
5. التمهيد لأبي الخطاب 281/2: محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي، تح: مفيد محمد أبو عمشة، ط:الأولى 1406هـ، دار المدني بمصر. وأصول التفسير وقواعده لخالد العك ص:43
6. قواعد الترجيح عند المفسرين 363/2، 369، 635 بتصرف لحسين بن علي الحربي، قدم له: الشيخ مناع القطان، ط: الأولى 1417هـ، دار القاسم الرياض. وللاستزادة يراجع تفسير الطبري: 210/3.
7. التحرير والتنوير 18/1
8. الموافقات للشاطبي 52/5: أبي إسحاق إبراهيم بن موسى، تح: الشيخ أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: الأولى 1417هـ، دار ابن عفان الخبر، وطبعة دار المعرفة بيروت بتح: محمد عبد الله دراز.
9. روى البخاري في كتاب التاريخ الكبير 93/5 برقم: 259
10. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ص: 206 - 207 لابن تيمية، ط: دار الفكر.
11. الموافقات 64/2
12. الموافقات 225/4
13. قواعد التفسير 224/1
14. الاعتصام للشاطبي 294/2، بعناية السيد محمد رشيد رضا، ط: 1406هـ، دار المعرفة بيروت.
15. نفس المصدر السابق
16. الشعراء: 192 - 195

17. الرسالة للشافعي ص: 51، ومقدمة تفسير الطبري 30/1 للطبري: أبي جعفر محمد بن جرير، ط: الأولى 1412هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
18. منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد: 506/2
19. الموافقات 404/3
20. أصول التفسير وقواعده ص: 138
21. انظر: نهاية الإقدام في علم الكلام لعبد الكريم الشهرستاني ص: 458 بتصرف.
22. البرهان في علوم القرآن للزركشي 292/1 أبي عبد الله محمد بن عبد الله
23. المصدر السابق
24. صون المنطق والكلام للسيوطي ص: 15
25. المصدر السابق ص: 15 – 16 بتصرف.
26. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص: 12
27. تهذيب اللغة 6/1 للأزهري: جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي، تح: الدكتور بشار عواد معروف، ط: الرابعة 1413هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.
28. مجموع الفتاوى 116/7 لابن تيمية: جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، ط: 1416هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
29. الموافقات 53/5
30. مفردات القرآن ص: 4 – 5
31. كتاب الإيمان ص: 95 لابن تيمية، تح: جماعة من العلماء، ط: الأولى 1403هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
32. الموافقات131/2
33. فاتحة نظام القرآن ص: 13
34. هود الآية: 40
35. تفسير الطبري 40/7 – 41.
36. البحر المحيط 223/5 لأبي حيان الأندلسي: محمد بن يوسف، تح: الشيخ عادل وآخرون، ط: الأولى 1413هـ، دار الكتب العلمية بيروت.
37. الزخرف: 15
38. تفسير الكشاف للزمخشري 413/3، أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله، ط: الثالثة 1403هـ، دار الكتاب العربي بيروت.
39. الإسراء: 71

40. انظر: تفسير الطبري 115/8 والدر المنثور للسيوطي 316/5
41. تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل 110/5، لأبي محمد الحسين بن مسعود، تح: محمد عبد الله النمر وآخرون، ط: الأولى: 1409هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض.
42. تفسير الزمخشري 369/2
43. هامش المصدر السابق.
44. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 390/7، لشهاب الدين، أبي العباس، أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تح: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم بدمشق.
45. الإتقان 186/4، الطبعة القديمة
46. الأنفال: 5
47. مجاز القرآن 240/1
48. البحر المحيط في التفسير 456/4
49. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: 707)، لابن هشام الأنصاري: أبي محمد عبد الله بن هشام، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: دار إحياء التراث العربي.
50. مغني اللبيب 546/2
51. الأعراف: 143
52. يوسف: 80
53. مريم: 26
54. البقرة الآية: 95
55. الزخرف الآية: 77
56. الحاقة الآية: 27
57. تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل 232/2، لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي، ط: الثانية 1375هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.
58. النساء: 3
59. حكاه القرطبي في تفسيره، 13/5 عن بعض أهل الظاهر وأهل الرفض.
60. الاعتصام للشاطبي 302/2.
61. الموافقات 277/4
62. تفسير القرطبي 13/5
63. المؤمنون: 5، 6
64. سورة ق: 6

65. الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن ص: 455
66. المصدر السابق ص: 410
67. المفردات للراغب ص: 628 والمعجم الوسيط 685/2
68. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للدكتور فهد الرومي 1101/3
69. انظر المصدر السابق

*_*_*